القسم الأول

المسنون وقضيتهم في هذا العصر

وفيه فصلان :

الفصل الأول : **التعريف بمصطلح المسنين والألفاظ ذات الصلة به ، وتحديد المسنين المقصودين في هذا البحث .**

الفصل الثاني : **تأصيل قضية المسنين في الاتجاهين المادي والإسلامي .**

القسم الأول

المسنون وقضيتهم في هذا العصر

تمهيد وتقسيم :

شهد العالم في السنوات العشرين الأخيرة اهتمامًا غير مسبوق بمرحلة الشيخوخة عند الإنسان فيما يمكن تسميته تظاهرة عالمية بحق المسنين . وكانت البداية عندما قررت هيئة الأمم المتحدة تخصيص سنة ١٩٨٢م لدراسة قضية المسنين في العالم ، واجتمع في هذا العام مندوبو ١٢٤ دولة انتهوا بالإعلان عن العقد التاسع من القرن العشرين عقد المسنين[١] .

وفي سنة ١٩٨٣م اجتمعت لجنة منظمة الصحة العالمية لذات الموضوع ، ورفعت شعار : « فلنضف الحياة إلى سنين العمر » وطلبت من فروعها في مختلف المناطق أن تقدم مشروعها العملي الجامع لتحقيق هذا الشعار[٢] .

وكان من نتائج الاستجابة السريعة لهذا النداء ما يلي :

(١) عكف المتخصصون في المجالات المختلفة من أطباء نفسيين وأساتذة تربويين واجتماعيين وموجهين دينيين على دراسة قضية المسنين ومرحلة الشيخوخة ، سواء بالمؤلفات المنفردة ، أو المؤلفات الجماعية المحررة ، أو الدراسات في إطار الندوات العامة ، وبعض تلك المؤلفات تم نشره وكثير منها في طريقه إلى النشر[٣] .

---

(١) حول حقوق المسنين للشيخ محمد علي التسخيري ـ ورقة عمل مقدمة لندوة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية (ص١) ، السنوات المتأخرة من العمر في ضوء الهدي الإسلامي ومعطيات الدراسات العلمية الحديثة للدكتور عز الدين إبراهيم ـ ورقة عمل مقدمة لذات الندوة (ص٣)

(٢) الشيخ محمد علي التسخيري ـ ورقة عمل سابقة (ص١) .

(٣) الدكتور عز الدين إبراهيم ـ ورقة عمل سابقة (ص٣) .

(٢) خصصت المؤتمرات الدولية بعض بنودها لخدمة تلك القضية ، ففي المؤتمر الدولي الذي انعقد في مكسيكو سيتي سنة ١٩٨٤م ذكر من توصياته : ضرورة الاهتمام بالمسنين لا باعتبارهم فئة تبعية تلقي بثقلها على المجتمع بل باعتبارها مجموعات قدمت معونات كبرى إلى الحياة الاقتصادية والتربوية والاجتماعية والثقافية لعوائلها وما زالت تستطيع أن تقدم ذلك . وفي المؤتمر الدولي الذي انعقد في فيينا سنة ١٩٨٨م أكد في توصياته على قواعد المشروع العملي المتعلق بالمسنين . وفي المؤتمر الآسيوي الرابع الذي انعقد في جزيرة بالي سنة ١٩٩٢م لم يغفل حق المسنين ، فقد أوصى الدول بتوفير امتيازات اقتصادية لهم كالإعفاء من الضرائب . وفي مؤتمر السكان والتنمية الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٩٤م ذكر من توصياته في الفصل السادس البند ج : أن على الدول أن تستهدف مسألة تعزيز الاعتماد على الذات لدى المسنين ، وتعزيز نوعية الحياة بتمكينهم من العمل والعيش بصورة مستقلة لأطول وقت ممكن ، ووضع نظم للرعاية الصحية علاوة على نظم للضمان الاقتصادي والاجتماعي عند الشيخوخة حسب الاقتضاء ، إلى غير ذلك من توصيات بحق المسنين . وفي المؤتمر الذي عقده قادة الدول في مجال التنمية الاجتماعية سنة ١٩٩٥م في كوبنهاجن أوصى الدول ببذل مساعي خاصة في حماية المسنين ، وخصوصًا المعلولين منهم من خلال تقوية نظام الحماية العائلية وتحسين مكانتهم الاجتماعيه وغير ذلك[١].

هذا ، وقد أصدرت الأمم المتحدة قرارًا بجعل سنة ١٩٩٩م سنة دولية لكبار السن ، وأصدرت مجموعة من المبادئ لكبار السن تمثل في مجملها حاجات المسنين[٢].

---

(١) الشيخ محمد علي التسخيري ـ ورقة عمل سابقة (ص٤،٥) .

(٢) نظام التأمين الاجتماعي من منظور إسلامي للدكتور عبد اللطيف محمود آل محمود (ص١٨) نقلاً عن اللجنة الوطنية للمسنين ـ مبادئ الأمم المتحدة لكبار السن ـ نشرة بمناسبة السنة الدولية لكبار السن ـ البحرين .

(٣) انعقدت الندوات واجتمعت المنظمات على مستوى الدول العربية والإسلامية لدراسة قضية المسنين ، وكان آخرها تلك الندوة التي عقدتها المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بدولة الكويت في الفترة من ٩-١٢ رجب ١٤٢٠هـ الموافقة ١٨-٢١ أكتوبر ١٩٩٩م ، وهي الندوة الطبية الثانية عشرة للمنظمة .

ولقد رأيت في متابعتي الشخصية لآثار نداء منظمة الصحة العالمية التي استحثت فروعها في مختلف المناطق لتقديم مشروع عملي جامع يتناول قضية المسنين - بروز اتجاهين مختلفين ، أحدهما : يعتمد في مرجعيته على منطق الاقتصاد من الربح والخسارة ، وهو اتجاه نافذ لسيطرة رأس المال على السياسات العامة في هذا العصر ، وهذا الاتجاه هو ما أطلقتُ عليه اسم : الاتجاه العلماني . والاتجاه الثاني : يعتمد في مرجعيته على قواعد الأخلاق ومنطق السماء ، وهو اتجاه منحسر ؛ للتمرد الإنساني على الشرائع السماوية في هذا العصر ، وهذا الاتجاه هو ما أطلقتُ عليه اسم : الاتجاه الأخلاقي والإسلامي .

وسوف أستعرض في هذا القسم - بإذن الله تعالى - هذين الاتجاهين في قضية المسنين بعد التعريف بهذا الاصطلاح والألفاظ ذات الصلة به . واكتفيت في بيان الاتجاه الأخلاقي والإسلامي بالشريعة الإسلامية دون غيرها من شرائع ؛ لثرائها في الجانب الإنساني والتشريعي بما يحقق المقصود ، فضلاً عن توثيق مرجعيتها ، وبذلك يتفرع هذا القسم إلى فصلين على الوجه التالي :

الفصل الأول : التعريف بمصطلح المسنين والألفاظ ذات الصلة به ، وتحديد المسنين المقصودين في هذا البحث .

الفصل الثاني : تأصيل قضية المسنين في الاتجاهين المادي والإسلامي .

الفصل الأول

التعريف بمصطلح المسنين والألفاظ ذات الصلة به ، وتحديد المسنين المقصودين في هذا البحث

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : التعريف بمصطلح المسنين والألفاظ ذات الصلة به .

المبحث الثاني : تحديد المسنين المقصودين في مجال البحث وسبب اختيارهم .

الفصل الأول

التعريف بمصطلح المسنين والألفاظ ذات الصلة به وتحديد المسنين المقصودين في هذا البحث

ينقسم هذا الفصل إلى مبحثين : الأول : أتكلم فيه عن تعريف مصطلح المسنين والألفاظ ذات الصلة به ، والمبحث الثاني : أحدد فيه المسنين المقصودين في مجال البحث وسبب اختيارهم .

المبحث الأول

التعريف بمصطلح المسنين والألفاظ ذات الصلة به

أتكلم هنا عن التعريفات اللغوية والاصطلاحية للفظ المسنين والألفاظ ذات الصلة به في مطلبين :

المطلب الأول

التعريف اللغوي للفظ المسنين والألفاظ ذات الصلة به

(١) المسن :

المسن هو من كبرت سنه وطال عمره ، فالمسن : اسم فاعل من أسنّ . تقول : أسن أي كبرت سنه وطال عمره ، وهذا أسن من هذا : أي أكبر سنًا منه ، وسنّن الرجل : أي قدر له عمرًا بالتخمين ، وتطلق السن على القطعة من العظم تنبت في

الفك ، وعلى كل جزء مسنن محدد على هيئتها ، مثل : سن الحشط ، وسن العمر ، وسن التَّرْب[1] واللِّدَة[2] ، يقال : فلان سِنُّ فلان إذا كان مثله في السن . والجمع : أسنان[3] .

(٢) الكهل :

الكهل هو من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين ، والجمع كهول . يقال : اكتهل فلان أي صار كهلاً .

والكاهل من الإنسان : ما بين كتفيه ، أو مَوْصل العنق في الصلب . ويقال : فلان كاهل بني فلان أي معتمدهم ، والكاهل من الفرس مُقدّم أعلى الظهر مما يلي العنق ، وفيه ست فِقر ، والجمع : كواهل[4] .

(٣) الشيخ :

الشيخ هو من أدرك الشيخوخة ، وهو فوق الكهل ودون الهرم ، ويعرف باستبانة السن وظهور الشيب . تقول : شاخ الإنسان شَيَخًا وشيوخة وشيخوخة ، أي أسنّ ،

---

١ ، الترب : ـ بكسر التاء مشددة وسكون الراء ـ أي المماثل في السن ، وأكثر ما يستعمل في المؤنث ، والجمع : أتراب . لسان العرب ، مادة : ترب . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ (ص:٥٢). يقول ابن كثير : أتراب ، أي متساويات في السن والعمر ، وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والسدي . تفسير ابن كثير (٤/٥٤) ، ومنه أيضًا قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ (الواقعة: ٣٥-٣٧). يقول ابن كثير عن ابن عباس : العرب : العواشق لأزواجهن وأزواجهن لهن عاشقون . والأتراب : يعني في سن واحدة . وقال مجاهد : الأتراب المتساويات . وقال السدي : ﴿ أَتْرَابًا ﴾ . أي في الأخلاق المتواخيات بينهن ليس بينهن تباغد ولا تحاسد . تفسير ابن كثير (٤/٣٧٥) .

٢ ، اللدة : ـ بكسر اللام مشددة وفتح الدال ـ من ولد معك في وقت واحد ، والجمع لدات . لسان العرب ، مادة : لدد .

٣ ، ويقال أسن الغلام أو سنن الغلام : أي نبتت سنه ، ومنها جعل ما يشبه الأسنان تقول : سن السكين أو سنن السكين : أي أحده فهو مسنون وسنين ، وسنن الشيء : جعل له ما يشبه الأسنان كالمنشار ، ومنها السير على الضرب تقول : استن بسنته : أي عمل بها ، ويقال : سنّ فلان طريقة من الخير لقومه ، فاستنوا به وسلكوه . انظر في ذلك : لسان العرب ، القاموس المحيط ، النهاية لابن الأثير ، المعجم الوسيط ، مادة : سنن .

٤ لسان العرب ، القاموس المحيط ، المعجم الوسيط ، مادة : كهل .

والجمع : شيوخ وأشياخ . واختلف أهل اللغة في سن بلوغ الشيخوخة ، وهي غالبًا عند الخمسين أو إحدى وخمسين إلى الثمانين ، وقيل : إلى آخر العمر[1].

(٤) العجوز :

العجوز هو الهَرِم ، والجمع : عُجُز ، والعجوز هي المرأة العجوز ، والجمع : عجائز ، تقول : عَجَز فلان عن الشيء عجزًا وعَجَزانًا : ضعف ولم يقدر عليه ، فهو عاجز ، والجمع : عَجَزَة .

وتقول : عَجُزَتِ المرأة عُجُوزًا : كَبِرتْ وأسنّت ، فهي عجوز وعجوزة ، والجمع : عجائز . ويقال : عَجَّزت المرأة : صارت عجوزًا . قال ابن السِّكِّيت : ولا يؤنث لفظ العجوز بالهاء . وقال ابن الأنباري : يؤنث فتقول : عجوزة لتحقيق التأنيث . وروي عن يونس أنه قال : سمعت العرب تقول : عجوزة ، بالهاء[2].

(٥) الهرم :

الهَرِم ـ بفتح الهاء وكسر الراء ـ هو من بلغ أقصى الكبر وضعف . تقول : هَرِم الرجل هَرَمًا فهو هَرِم ، والجمع هَرْمى ، وهي هرمة ، والجمع : هرمات . ويقال : أهرم الدهرُ فلانًا : أي جعله هرمًا ، وهرّم الدهر فلانًا : أي أهرمه ، وتهارم فلان : ادعى أنه هرم وليس به . وابن هرمة : آخر ولد الشيخ والشيخة[3].

(٦) المُعَمَّر ومن بلغ أرذل العمر :

المعمر ـ بضم أوله وفتح العين والميم مشددة ـ هو من أطال الله عمره على أقرانه . يقال : عَمَر الرجل عَمْرًا : أي عاش زمانًا طويلاً ، وعمر الله فلانًا : أي أبقاه

---

(١) ويطلق الشيخ أيضًا على ذي المكانة من علم أو فضل أو رياسة . لسان العرب ، لقاموس المحيط ، المعجم الوسيط ، مادة : شيخ .

(٢) ويقال : عجزت ـ بفتح العين وكسر الجيم ـ المرأة عجزًا ـ بفتح العين والجيم ـ عظُم عَجْزُها فهي عجزاء ، والجمع : عُجْز . والعجز ـ بفتح العين وضم الجيم ـ مؤخر الشيء ، والجمع : أعجاز . لسان العرب ، القاموس المحيط ، المعجم الوسيط ، المفردات للراغب الأصفهاني ، مادة : عجز .

(٣) لسان العرب ، القاموس المحيط ، المعجم الوسيط ، مادة : هرم .

وأطال حياته ، ومن ذلك : عَمُر المالُ عمارة : أي صار كثيرًا وافرًا فهو عمير . والعُمْر : مدة الحياة ، والجمع : أعمار[1] .

وأرذل العمر : آخره في حال الكبر والعجز والخَرَف . ويقول أبو حيان : أرذل العمر آخره الذي تفسد فيه الحواس ويختل النطق والفكر ، وخص بالرذيلة ؛ لأنها حالة لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد بخلاف حال الطفولة ، فإنها حالة تتقدم فيها إلى القوة وإدراك الأشياء . والأرذل : الدون الخسيس أو الرديء من كل شيء ، والجمع : أراذل . والرّذيل : الدون الخسيس ، والجمع : رذلاء ، تقول : رذُل رذالة ، ورُذولة أي : ردؤ ، فهو رَذْل ورذيل وهم رذلاء[2] .

* * *

(١) ويقال أيضًا : عمر المنزلَ بأهله : كان مسكونًا بهم ، فهو عامر . وعمر فلان الدار : بناها فهي معمورة ، وعمر القوم المكان : سكنوه فهو معمور . لسان العرب ، القاموس المحيط ، المعجم الوسيط ، مادة : عمر .

(٢) المراجع السابقة ، مادة : رذل ، وانظر أيضًا تفسير البحر المحيط (٤٦٨/٥) .

المطلب الثاني
التعريف الاصطلاحي للفظ المسنين
والألفاظ ذات الصلة به

(١) المسن :

لا يخرج تعريف الفقهاء للمسن عن التعريف اللغوي وهو من كبرت سنه ، وإن ذكروه بأثره لا بصفته ، فقالوا : هو الذي لا يطيق الصوم في زمن من الأزمان وبوجه من الوجوه[١].

والمسن قد يكون طاعنًا في الكبر وقد يكون غير طاعن ، ومن ذلك ما أخرجه مسلم عن ابن عمر قال : نفَّلنا رسول الله ﷺ نفلاً سوى نصيبنا من الخمس ، فأصابني شارف ، والشارف المسن الكبير[٢].

ويرى بعض الباحثين أن المسن هو من اجتمعت فيه محصلة العوامل البيولوجية والنفسية والاجتماعية ، التي تؤدي إلى الحد من قدرة الفرد على استيعاب التغيير أو التأقلم مع متغيرات الحياة من حوله ، والوصول في سن معينة تختلف من فرد إلى آخر إلى الحاجة للرعاية ، سواء أكان ذلك ماديًا أم طبيًا أم نفسيًا أم اجتماعيًا[٣].

(٢) الكهل :

لا يخرج التعريف الاصطلاحي للكهل عن التعريف اللغوي له ، وقد استعمله القرآن الكريم للدلالة على مرحلة النضج البشري حيث ورد فيه من البشارة

---

(١) شرح العناية على الهداية للبابرتي مع شرح فتح القدير (٣٥٦/٢) ، مواهب الجليل (٤١٤/٢) ، نهاية المحتاج (١٩٣/٣) ، كشاف القناع (٣٠٩/٢) .

(٢) صحيح مسلم (١٣٦٩/٣) رقم (١٧٥٠). والشارف من الإبل المسن الكبير . والحديث في «البخاري» بلفظ : أن رسول الله ﷺ كان ينفِّل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قِسْم عامة الجيش . صحيح البخاري (١١٤١/٣) رقم (٢٩٦٦) .

(٣) نظام التأمين الاجتماعي من منظور إسلامي بحث مقدم لندوة حقوق المسنين للمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية مقدم من الدكتور عبد اللطيف آل محمود (ص ١٥) .

لمريم ـ عليها السلام ـ بأنه سيولد منها ولد عظيم له شأن كبير، في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (آل عمران:٤٥،٤٦). كما ورد في القرآن الكريم بعض ما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ مما أجراه على يديه من المعجزات في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة:١١٠).

يقول ابن كثير في تفسير آية «آل عمران»: ﴿ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾: أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره، معجزة وآية، وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه بذلك[1]، ويقول في تفسير آية «المائدة»: ﴿ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾: أي تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك، وضمّن «تكلم» تدعو؛ لأن كلامه في كهولته ليس بأمر عجيب[2].

(٣) الشيخ:

لا يخرج تعريف الفقهاء للشيخ عن تعريف اللغويين، وإن ذكره بعضهم بأثره لا بصفته كتعريف المسن، فقال: هو الذي لا يطيق الصوم في زمن من الأزمان وبوجه من الوجوه[3].

ويرى بعض الباحثين أن الشيخوخة حالة يصبح فيها الانحدار في القدرات الوظيفية البدنية والعقلية واضحًا يمكن قياسه وله آثاره على العمليات التوافقية[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٨٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/١٥٧).

(٣) المراجع السابقة في تعريف المسن.

(٤) وهذا التعريف لا يرتبط بسن، ولذلك قسموا الشيخوخة إلى قسمين: طبيعية بحكم السن، ومرضية بحكم العلل. الوراثة والشيخوخة للدكتورة صديقة العوضي (ص ٢).

ويرى البعض تحديد الشيخوخة بسن معينة فيما روي عن الإمام جعفر الصادق قوله : إذا زاد الرجل على الثلاثين فهو كهل ، وإذا زاد على الأربعين فهو شيخ[1].

وأطلق الشيخ في القرآن الكريم على من بلغ مرحلة الضعف بعد الشدة والقوة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (غافر:٦٧). وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾(الروم:٥٤).

يقول ابن كثير في تفسير آية «الروم» : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ (الروم:٥٤) : أي ثم يشرع في النقص فيكتهل ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو لضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللمة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة[2].

كما أطلق الشيخ في السنة على ما يقابل الشاب فيما أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «قلب الشيخ شاب في حب اثنتين : في حب الحياة وكثرة المال»[3]. وأخرجه البخاري عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ : «لا يزال قلب الكبير شابًا في اثنتين : في حب الدنيا وطول الأمل»[4].

---

(١) بحار الأنوار (٢٥٣/٧٨). ونقله الشيخ محمد علي التسخيري في بحثه حول حقوق المسنين (ص٥) ، وهو اختيار الشيرازي الشافعي حيث قال في باب الوصية : وإن وصى للشيوخ أعطى من جاوز الأربعين . المهذب (٤٥٦/١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٥٨٠/٣) ، والمقصود باللمة : شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن ، والجمع : لمم ولُمام . القاموس المحيط ، مادة : «لمّ» .

(٣) سنن ابن ماجه (١٤١٥/٢) رقم (٤٢٣٣) .

(٤) صحيح البخاري (٢٣٦٠/٥) رقم (٦٠٥٧) .

والشيخ ينقسم إلى قسمين ، أحدهما : يوصف بالفاني أو الكبير ، والثاني : لا يوصف بذلك . وهذه القسمة يؤيدها ظاهر ما أخرجه ابن حبان وابن ماجه والترمذي ـ وقال : حديث حسن غريب ـ من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك »[1].

يقول ابن نجيم : والشيخ الفاني هو الذي كل يوم في نقص إلى أن يموت ، وسمي به إما لأنه قرب من الفناء ، أو لأنه فنيت قوته[2].

ويوصف الشيخ الفاني بوصف الكبير ، فيقال : شيخ كبير ، وهو الذي أثر الكبر في نشاطه ، وقد ورد في القرآن الكريم حكاية قول ابنتي شعيب[3] لموسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (القصص:٢٣).

كما ورد في القرآن الكريم حكاية قول أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ لأخيهم يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ (يوسف:٧٨).

والشيخ الذي لا يوصف بالفاني لا يوصف أيضًا بالكبير ، ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم حكاية قول زوجة إبراهيم ـ عليهما السلام ـ : ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ (هود:٧٢).

وتنقسم الشيخوخة في « علم نفس النمو » إلى شيخوخة مبكرة (من ٦٠-٧٠سنة) وشيخوخة متأخرة (من ٧٠ سنة فأكثر)[4].

وذهب بعض الباحثين إلى القول بأنه ينبغي ألا ترتبط الشيخوخة بعمر زمني معين ؛ لأن هذا التمييز ـ بين العمر الزمني وبين العمر البيولوجي وبين العمر الاجتماعي وبين العمر النفسي ـ غير متلازم وكثيراً ما لا يتفق .

---

(١) صحيح ابن حبان (٧/٢٤٦) رقم (٢٩٨٠) ، سنن ابن ماجه (٢/١٤١٥) رقم (٤٢٣٦) ، سنن الترمذي (٥/٥٥٣) رقم (٣٥٥٠) .

(٢) البحر الرائق (٢/٣٨) ، وانظر أيضًا : حاشية ابن عابدين (٢/١١٩) .

(٣) على أشهر أقوال المفسرين في تحديد هذا الشيخ بأنه شعيب ، عليه السلام ، كما ورد في أكثر التفاسير .

(٤) السنوات المتأخرة من العمر للدكتور عز الدين إبراهيم (ص ٢) .

والعمر الزمني يحتسب على أساس سن الحياة من ولادة الإنسان ، ويكاد ينعقد الإجماع على اعتبار الشيخوخة من سن الستين ، وتسمى : شيخوخة مبكرة إلى سن الخامسة والسبعين ، ثم تأتي الشيخوخة المتأخرة (الهرَم) التي تبدأ من حيث تنتهي الشيخوخة المبكرة وتستمر إلى نهاية العمر .

ويتم احتساب العمر البيولوجي على أساس المعطيات البيولوجية المتوقعة لتلك المرحلة ، مثل : معدل الأيض[1] Metabolisme، ومعدل نشاط الغدد الصماء ، وتغير قوة دفع الدم ، وتغير السعة الهوائية للرئتين ، والتغيرات العصبية وغيرها .

ويتم احتساب العمر النفسي على أساس جملة الخصائص النفسية التي تظهر من خلال مجموع السلوك الصادر عن الفرد مثل الشعور الشديد بالنهاية ، والميل الحاد إلى التصوف ، ووجود الصعوبة الكبيرة للمحافظة على مكانة الفرد في المجتمع المتطور والمتمركز حول الذات وغيرها .

ويتم احتساب العمر الاجتماعي على أساس إعادة بناء الشخص لاتجاهاته وأفكاره وسلوكه بحيث يمكنه الاستجابة للمواقف الجديدة بما يتفق مع رغباته وطموحه من ناحية ، وتوقعات وطموحات المجتمع من ناحية أخرى ، وهو ما يسمى بالتوافق الشخصي[2].

(٤) العجوز :

فسَّر القرطبي العجوز بالشيخة ، ولا يخرج استعمال الفقهاء للعجوز عن معناه اللغوي[3].

هذا ، وقد استعمل القرآن الكريم لفظ العجوز أربع مرات في التعبير عن المرأة التي بلغت سن اليأس الذي لا تنجب فيه غالبًا ، قال تعالى : ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ

---

(١) معدل الأيض : السرعة التي يحرق فيها الجسم السعرات الحرارية .

(٢) نظام التأمين الاجتماعي للمسنين من منظور إسلامي - بحث مقدم لندوة حقوق المسنين (ص١٤،١٥) للدكتور عبد اللطيف آل محمود - نقلاً عن محمد عودة في ورقة عمله «قياس مرحلة الشيخوخة ومشكلاتها» ومحمد عبد الموجود عبد الغني في محاضرته بعنوان «التخطيط لكبار السن»

(٣) تفسير القرطبي (٦/٩) ، الفواكه الدواني (٢/٤١٠) .

فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ (هود: ٧١، ٧٢). وقال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٧٠، ١٧١). وقال تعالى: ﴿إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ (الصافات: ١٣٤، ١٣٥)، وقال جل شأنه: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (الذاريات: ٢٩).

وأطلقت العجوز في السنة المطهرة على المرأة كبيرة السن ثيبًا كانت أم بكرًا، فقد أخرج الطبري والطبراني والبيهقي في «البعث» عن سلمة بن يزيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ (الواقعة: ٣٥): «يعني الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا»[١]. قال ابن كثير: جاء من طريق عبد بن حميد عن الحسن قال: أتت عجوز فقالت: يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة، فقال: «يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز». قال: فولت تبكي، قال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (الواقعة: ٣٥، ٣٦)»[٢].

وجاء إطلاق العجوز في السنة أيضًا على من ضعف بصرها من كبر السن، فقد أخرج الترمذي من حديث أنس، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ قال: «إن من المنشآت التي كن في الدنيا عجائز عُمْشًا رُمْصًا»[٣].

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/١١٩)، المعجم الكبير (٧/٤٠) رقم (٦٣٢٢)، البعث (١/٣٥٦) رقم (٣٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٧٣)، والحديث أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية (ص ١٩٩) رقم (٢٤١) عن عبد بن حميد، والبيهقي في البعث (١/٣٥٧) رقم (٣٣٤) من طريق المبارك بن فضالة عن الحسن.

(٣) سنن الترمذي (٥/٤٠٢) رقم (٣٢٩٦). وقال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة، ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث. ويقال: عمش فلان عمشًا، أي ضعف بصره مع سيلان دمع عينه في أكثر الأوقات، فهو أعمش وهي عمشاء والجمع عُمْش. لسان العرب، القاموس، مادة: عمش. ويقال: رمصت العينُ رمصًا، أي اجتمع في موقعها وسخ أبيض، فهو أرمص، وهي رمصاء، والجمع: رُمْصٌ. والرمص: وسخ أبيض جامد يجتمع في موقع العين. لسان العرب، القاموس، مادة: رمص.

وقد يطلق لفظ العجوز على المرأة في معرض الإنقاص من شأنها ، وإن كانت كبيرة السن في الواقع ، ومن ذلك ما رواه الشيخان عن عائشة قالت : استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة ، فارتاع لذلك ، فقال : « اللهم هالة». قالت : فغرت ، فقلت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر قد أبدلك الله خيرًا منها[1].

(٥) الهَرِم :

لا يخرج التعريف الاصطلاحي للهرم عن معناه اللغوي ، وقد عبر القرآن الكريم عنه بالوهن ، فقال سبحانه حكاية عن زكريا ـ عليه السلام ـ : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾(مريم:٣،٤).

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾: قال بعض المفسرين : إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره ، حكاه الماوردي ـ وقال آخرون : إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله تعالى . وقال ابن كثير في قوله تعالى ﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾: أي ضعفت وخارت القوى ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أي اضطرم المشيب في السواد ، والمراد من هذا : الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة[2].

واستعملت السنة المطهرة اصطلاح الهرم في مقابلة الشباب فيما أخرجه مسلم عن أنس ، أن النبي ﷺ قال : « يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان : الحرص على المال والحرص على العمر »[3]. وأخرجه البخاري عن أنس بلفظ : « يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان : حب المال وطول العمر »[4].

---

(١)صحيح البخاري (٣/١٣٨٩) رقم (٣٦١٠) ، صحيح مسلم (٤/١٨٨٩) رقم (٢٤٣٧) .

(٢)تفسير ابن كثير (٣/١٥٠) .

(٣)صحيح مسلم (٢/٧٢٤) رقم (١٠٤٦) .

(٤)صحيح البخاري (٥/٢٣٦٠) رقم (٦٠٥٨) .

(٦) المُعمّر ومن بلغ أرذل العمر :

الراجح عند أهل العلم أن المعمر من بلغ الستين ، وأرذل العمر عند بلوغ الخامسة والسبعين .

أما المعمر فقد جاءت إشارته في قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾(فاطر:٣٧). يقول ابن عباس : العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ : ستون سنة . يقول ابن كثير : وهذه الرواية أصح الروايات عن ابن عباس ، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضًا لما ثبت في ذلك[١]. وقد أخرج الطبري بسنده عن أصبغ بن نباتة عن علي ﷺ ، أنه قال : العمر الذي عمَّرهم الله به في قوله : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ : ستون سنة[٢]. وأخرج الطبري والطبراني والبيهقي عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة ، قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾[٣]. وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياه حتى بلغ الستين أو السبعين سنة ، لقد أعذر الله تعالى إليه ، لقد أعذر الله تعالى إليه »[٤]. وروى الإمام البخاري في كتاب الرقائق من « صحيحه » عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « أعذر الله عز وجل إلى امرئ أخَّر أجله حتى بلَّغه ستين سنة »[٥]. وفي رواية أخرى لأحمد وابن حبان : « من عمره الله تعالى ستين سنة فقد أعذر إليه في

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٧٣٨) .

(٢) تفسير الطبري (٢٠/٤٧٨) .

(٣) تفسير الطبري (٢٠/٤٧٧) المعجم الكبير (١١/١٧٧) رقم (١١٤١٥). المعجم الأوسط (٨/٤٩) رقم (٧٩٢٥) ، السنن الكبرى (٣/٣٧٠).

(٤) مسند الإمام أحمد (١٣/٣٩) رقم (٧٧١٣) . ومعنى أعذر الله إليه أي ما ترك له عذرًا .

(٥) صحيح البخاري (٥/٢٣٦٠) رقم (٦٠٥٦) .

العمر»[1]. وروى ابن جرير بسنده عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «لقد أعذر الله عز وجل في العمر إلى صاحب الستين سنة والسبعين»[2].

قال ابن كثير : وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء : مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم ، كما قال الشاعر :

إذا بلغ الفتى ستين عامًا ... فقد ذهب المسرة والفتاء

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده ويزيح به عنهم العلل ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة[3].

وقد ورد في القرآن الكريم اصطلاح المعمر للتعبير عن طول العمر مطلقًا ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (فاطر:١١). وقال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة:٩٦). وقال تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يس:٦٨).

وأما أرذل العمر فيقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (النحل:٧٠). يقول : يخبر تعالى عن تصرفه في عباده ، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم ، وهو الضعف في الخلقة ، وقد روي عن علي رضي الله عنه : أرذل العمر خمس وسبعون سنة .

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٥/٢٣٠) رقم (٩٣٩٤) ، صحيح ابن حبان (٧/٢٤٥) رقم (٢٩٧٩) .

(٢) تفسير الطبري (٢٠/٤٧٨) .

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٧٣٨) . والبيت للربيع بن ضبع الفزاري ، وكان من المعمرين ، ورواية الشطر الأول من البيت : «إذا بلغ الفتى مائتين عامًا» . وانظر الكتاب لسيبويه (١/٢٠٨)، أوضح المسالك (٤/٢٥٥) ، لسان العرب ، مادة : فتي .

وهذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ، ولهذا قال : ﴿ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ أي بعد ما كان عالمًا أصبح لا يدري شيئًا من الفند والخرف . ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك ، أن النبي ﷺ كان يدعو : «أعوذ بك من البخل والكسل ، والهرم وأرذل العمر ، وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات» . وقال زهير بن أبي سُلْمَى في معلقته المشهورة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين عامًا لا أبا لك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يُعَمَّر فيَهْرَم[1]

ويقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ (الحج:٥). يقول : أرذل العمر هو الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر[2] .

ويقول الزمخشري : يصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولة في النسيان ، وأن يعلم شيئًا ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إن سئل عنه[3].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٧٦٢/٢) ، والحديث في البخاري (١٧٤١/٤) رقم (٤٤٣٠) عن أنس ، كما ورد دون لفظ «الهرم» .
(٢) تفسير ابن كثير (٢٧٩/٣) .
(٣) الكشاف (٦/٣) .

المبحث الثاني

تحديد المسنين المقصودين في مجال البحث وسبب اختيارهم

ينتهي طول العمر في الدنيا بالموت حتمًا ، وإن ظل المعمر صحيح البدن ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:٨٨). وقال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن:٢٦،٢٧).

غير أن طول العمر في الدنيا ليس هو فقط سبيل الوفاة ، بل قد تحدث الوفاة وينتهي أجل الإنسان في الدنيا في مرحلتي الطفولة والشباب ، وربما قبل ذلك وهو لا يزال جنينًا في بطن أمه ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (غافر:٦٧).

وهناك أسباب كثيرة لانتهاء الأجل قبل الشيخوخة من ذلك الأمراض الفتّاكة ، والحوادث المهلكة ، والكوارث المدمرة ، والسكتات القلبية والدماغية (موت الفجاءة).

هذا ، وكثيرًا ما يصاحب طول العمر في الدنيا انتكاسات صحية ونفسية ومالية ، فيوصف المسن بالمسن المريض أو بالمسن الفقير .

ويكاد الإجماع ينعقد في الدراسات الشرعية والوضعية الاجتماعية على أن المقصود بالمسن أو المعمر أو الشيخ هو من بلغ الخامسة والستين فصاعدًا ، وهذه هي المرحلة المتقدمة ، أما المرحلة المتأخرة فتبدأ ببلوغ الخامسة والسبعين [١].

---

(١) راجع سابقًا التعريف الاصطلاحي للفظ المسنين والألفاظ ذات الصلة به ، وانظر أيضًا بحث الدكتور محمد الهواري بعنوان :«رعاية المسنين المسلمين في الغرب» (ص ٨)، وأيضًا بحث ==

ويسمى أهل المرحلة المتقدمة بالمسن النشط أو الصغير ، ويسمى أهل المرحلة المتأخرة بالمسن الكبير[1] .

وقد اعتبر النبي ﷺ سن ما بين الستين إلى السبعين نقطة تحول في حياة الإنسان حيث أخرج البخاري عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « أعذر الله عز وجل إلى امرئ أخَّر أجله حتى بلغه ستين سنة »[2] . وفي رواية عند أحمد وابن حبان : « أعذر الله عز وجل إلى عبدٍ أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر الله تعالى إليه ، لقد أعذر الله تعالى إليه »[3] . ومعنى أعذر الله إليه أي ما ترك له عذرًا ، وما بين الستين إلى السبعين هو الخامسة والستون .

والفرق بين التقويمين الإسلامي وغيره أن التقويم الإسلامي يعتمد السنة القمرية أو العربية أو الهجرية نسبة لهجرة النبي محمد ﷺ من مكة إلى المدينة ،

== الدكتور عبد اللطيف آل محمود بعنوان : « نظام التأمين الاجتماعي للمسنين من منظور إسلامي » (ص ١٤) حيث قال : وهناك شبه إجماع على اعتبار سن الستين بداية لمرحلة الشيخوخة وتستمر إلى نهاية العمر .

هذا وقد اختارت لجنة خبراء منظمة الصحة العالمية عام ١٩٧٢م سن الخامسة والستين على أنه بداية للتعمير ، باعتبار أن هذا السن يتفق مع سن التقاعد في معظم البلدان ـ بحث « الرعاية المتكاملة للمسنين » للدكتور إبراهيم بدران (ص ٤) ، ولذلك وجدت بعض الباحثين يذكر أن معظم الدراسات تتخذ سن ٦٥ عامًا حدًّا فاصلاً لتعريف الشيخوخة ، انظر بحث الآثار النفسية والاجتماعية لزيادة عدد المسنين على المجتمع للدكتور مأمون مبيض (ص ٥) ، بحث الوراثة والشيخوخة للدكتورة صدِّيقة العوضي (ص ٢) ، حول حقوق المسنين للشيخ محمد علي التسخيري (ص ٥) .

وأرى أن الراجح هو اعتماد سن الخامسة والستين بداية للشيخوخة ؛ لثبوت الأحاديث في ذلك ، التي جمعت بين الستين والسبعين ، ولاستقرار الرأي عليه عند جمهور أهل اللغة في تعريفهم لها ، وهو ما أخذت به لجنة خبراء منظمة الصحة العالمية سنة ١٩٧٢م ارتباطًا بسن التقاعد في معظم البلدان .

(١) الرعاية المتكاملة للمسنين للدكتور إبراهيم بدران (ص ٤) .

(٢) صحيح البخاري (٥/٢٣٦٠) رقم (٦٠٥٦) .

(٣) مسند الإمام أحمد (١٥/٢٣٠) رقم (٩٣٩٤) ، صحيح ابن حبان (٧/٢٤٥) رقم (٢٩٧٩).

أما الآخرون فيعتمدون التقويم الشمسي أو الميلادي لعيسى ابن مريم ـ عليهما السلام[1] ـ والسنة القمرية تنقص عن السنة الشمسية بحوالي ١٢ يومًا ، وهذا يجمل في كل مائة عام ميلادي ثلاث سنوات هجرية[2].

وحديثنا عن المسنين في هذا البحث ينصرف إلى هاتين المرحلتين : الشيخوخة المبكرة (من ٦٥-٧٥ سنة) والشيخوخة المتأخرة (من ٧٥ سنة حتى النهاية) ،

---

(١) يرجع اعتماد الناس على التقويم الشمسي أو الميلادي إلى سببين رئيسين ، الأول : أسبقية التقويم الميلادي عن التقويم الهجري . الثاني : انضباط الأشهر الميلادية حتى ولو تفاوتت في أعداد أيامها. وأرى أنه بعد التقدم العلمي في هذا العصر وتمكن العلماء من ضبط الأشهر القمرية فلكيًا بما لا يدع مجالاً للشك في حساباتها ستظهر أسرار ترتبط بمصلحة الإنسان في اعتماد هذا التقويم ، وسيتوجه الناس إليه ، ويومئذ تظهر آية جديدة من آيات الإسلام المعجز في تحديده فرائض الزكاة والصوم والحج وأحكام العدد وغيرها بالأشهر القمرية .

وتجدر الإشارة أنه لا يوجد حرج شرعي في اعتماد التقويم الشمسي فقد أفتى به الحنفية ورواه الحسن عن أبي حنيفة حيث قالوا في زوجة العنين تطلب الفرقة أنه يجب على القاضي أن يمهله سنة قمرية وهي ثلاثمائة وأربعة وخمسون يومًا ، قالوا : وهو الصحيح وظاهر الرواية . قالوا : وفي المحيط : أن الاعتبار للشمسية وهي ثلاثمائة وخمسة وستون يومًا وخمس ساعات وخمس وخمسون دقيقة واثنتا عشرة ثانية برصد بطليموس ، قال في الخلاصة : وعليه الفتوى . مجمع الأنهر (٤٦٢/١) .

وقال ابن تاج الدين الحنفي : يؤجل المجبوب سنة قمرية في ظاهر الرواية ، وفي رواية الحسن عن أبي حنيفة : سنة شمسية بالأيام وعليه الفتوى ـ أحكام المرضى لابن تاج الدين الحنفي ـ تحقيق محمد سرور ـ طبع وزارة الأوقاف بالكويت (ص ١٥٦) .

(٢) قال تعالى : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلث مائة سنين وازدادوا تسعًا ﴾ (الكهف: ٢٥) . قال ابن كثير : الثلاثمائة بالسنة الشمسية تزيد تسع سنين بالهلالية . تفسير ابن كثير (١٠٩/٣) .

يقول الشيخ عبد الحميد الشرواني في حاشيته (٣٨٤/١) ما نصه : السنة القمرية ثلاثمائة يوم وأربعة وخمسون يومًا وخُمس يوم وسدسه ؛ لأن كل ثلاثين سنة تزيد أحد عشر يومًا بسبب الكسور فإذا قسطت على الثلاثين خص كل سنة خُمس يوم وسدسه ؛ لأن ستة منها في خمسة بثلاثين خمسا والخمسة الباقية في ستة بثلاثين سدسًا فيخص كل سنة من الثلاثين خُمس يوم وسدسه ، وأما السنة الشمسية فثلاثمائة يوم وخمسة وستون يومًا وربع يوم إلا جزءًا من ثلاثمائة جزء من يوم ، والسنة العددية ثلاثمائة يوم وستون يومًا لا تزيد ولا تنقص . ا هـ .

وذلك في حال استوائها واستقامتها ، أي دون النظر إلى ما يصاحب الشيخوخة من مرض أو فقر ، وإن كان كل منهما ظرفًا مخففًا يدعو إلى الرفق .

إن دراستي في هذا البحث تنصب على مرحلة موضوعية من مراحل عمر الإنسان ، وهي مرحلة أرذل العمر التي ينتهي بها الأجل غالبًا . أهدف بها إلى إبراز الأحكام المتعلقة بهذه الشريحة العمرية ؛ تلبية لنداء المشاركين في ندوة حقوق المسنين من منظور إسلامي والمعقودة في الكويت برعاية المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في رجب ١٤٢٠هـ - أكتوبر ١٩٩٩م ، وبخاصة ما أشار إليه الأستاذ الدكتور عز الدين إبراهيم في ورقة عمله التي قدمها لتلك الندوة (ص ٣) تحت عنوان : « السنوات المتأخرة من العمر في ضوء الهدي الإسلامي ومعطيات الدراسات العلمية الحديثة » .

والمستقرئ لأحكام الشريعة الإسلامية يجد اهتمامها فضلاً عن رعايتها لأهل تلك المرحلة السنية رجالاً ونساءً ، وقد اختصتهم بأحكام شرعية لثلاثة أسباب :

السبب الأول : أن من بلغ هذه السن يفقد الأمل في العيش في الدنيا أكثر مما عاش فيها ، بل يطارده القلق والتوتر ، ويغلبه ظن حلول الأجل في كل حين .

وهذا المعنى إذا تملك الإنسان فإنه يدفعه إلى كثير من التصرفات الطائشة ، سواء منها ما كان مبناه الانتقام والكيد أو كان مبناه العاطفة والهوى .

فكان كبر السن مظنة لسوء التصرفات وعدم استقامتها على الأصل الذي شرعت من أجله .

السبب الثاني : أن من بلغ هذه السن يفقد كثيرًا من حيويته الجسمانية ، سواء في ذلك السمع أو البصر أو الذاكرة أو الصحة العامة أو الجمال والحبل [1] ، بل وحتى

---

(١) ولذلك جاء في القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وهب لى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (إبراهيم:٣٩) . وعلى لسان زوجة إبراهيم قال تعالى : ﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ (هود: ٧٢،٧٣).

السمت الخارجي فضلاً عن عدم طول البال وقلة الصبر[1] وغير ذلك مما هو أساس في كثير من الأحكام الشرعية بنوعيها : معقولة المعنى وغير معقولة المعنى.

أما الأحكام الشرعية معقولة المعنى كالنهي عن الخلوة لمظنة الفاحشة ، والندب لاتخاذ الشهادة لتوثيق الديون والحقوق فإن كبر السن كحالة لا ترجو نكاحًا ولا إرب لها به ، والطعن فيها يؤكد دنو الأجل وزيادة الحاجة لتوثيق الديون والحقوق ، الأمر الذي يؤثر في الحكم التكليفي لتلك المتغيرات الوضعية .

وأما الأحكام الشرعية غير معقولة المعنى ـ وهي الأحكام العبادية المحضة ـ كالقيام في صلاة الفريضة والطواف والسعي في الحج فإن كبر السن يصاحبه غالبًا هشاشة العظام والهبوط والضغط العام ، وتلك أوضاع تحول دون التمكن من تلك العبادات على الوجه المعتاد ، الأمر الذي يتأثر معه الحكم التكليفي .

السبب الثالث : أن من بلغ هذه السن قد أفنى شبابه وقوته في خدمة مجتمعه وعشيرته ، أو أن الأصل كذلك ، فاستحق أن يعيش ما تبقى من عمره مخدومًا ، من باب قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (الرحمن: ٦٠).

هذا ، ويرى بعض الباحثين الشرعيين المعاصرين أنه لا يوجد ما يجعل لستين سنة نقطة تحول في عمر الإنسان وعطائه ، وقال : إذ أن هذا أمر ذاتي لا موضوعي ، فهو يختلف باختلاف الأشخاص ، ولكنه لما كان أمرًا مصطلحًا عليه مراعًى فيه فتح آفاق التشغيل للشباب ، والرقي في الرتب الوظيفية للإطارات العامة فإنه لا مانع منه ما دامت المصلحة العامة تقتضيه ، ويطبق تطبيقًا عادلاً لا محاباة فيه لأحد[2] .

---

(١) ولذلك جاء في حديث خويلة بنت ثعلبة قالت : فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله جل وعلا صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده وكان شيخا كبيرًا قد ساء خلقه وضجر . قالت : فدخل عليّ يومًا فراجعته في شيء فغضب وقال : أنت عليّ كظهر أمي . وذكرت القصة . صحيح ابن حبان (١٠ /١٠٧) رقم (٤٢٧٩) .

(٢) الشيخ محمد مختار السلامي في بحثه تطور حقوق المسنين وواجبات أفراد الأسرة تجاههم (ص ٧) .

وإنني أختلف تمامًا مع هذا الاتجاه الذي ينفي حقيقة ما يطرأ على المسنين من متغيرات قد تدفع بهم إلى إبرام تصرفات انتقامية أو هوائية ، أو متغيرات جسمانية وصحية تفقد الحكمة من تحريم بعض التصرفات التي يظهر معناها في الصحة والشباب كالخلوة والمصافحة وإفشاء السلام بين أهل الجنسين ووضع الثياب وغير ذلك ، وحسبنا قول الله تعالى : ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ (النور:٦٠). وقد اعترف هذا البعض بتلك المتغيرات عندما أشار إلى سن التقاعد الإلزامي في كل الدوائر الحكومية على مستوى العالم ، وأيضًا عندما تكلم عن خاصية ضعف الشيخوخة فقال : هذه سُنَّة من سنن الخلق تتوالى أطوار الإنسان من ضعف في كل شيء إلى ضلاعة في التكوين ثم انحدار إلى ضعف لا قوة بعده ، فالطور الأخير هو دور الصيرورة نحو التلاشي والانحلال الذاهب إلى النهاية المحتومة ، وشتان ما بين ضعف يتحول كل يوم إلى وضع أشد وأصلب وأبرز قوة ، وبين ضعف يزداد كل يوم وهنه ، فإذا كان الأول يستغني مع الأيام بنفسه فإن الضعف الثاني يزداد كل يوم عجزًا وبالتالي اعتمادًا على غيره[1].

ولذلك رأيت ابن عابدين يحكي رواية عن أبي حنيفة في قصر تحريم مس المرأة الرجل على حال الشهوة ، فقال : وفي رواية : يشترط أن يكون الرجل أيضًا غير مُشْتَهىً . قال في «الذخيرة» : وإن كانت عجوزًا لا تشتهى فلا بأس بمصافحتها أو مس يدها ، وكذلك إذا كان شيخًا يأمن على نفسه وعليها فلا بأس أن يصافحها ، وإن كان لا يأمن على نفسه أو عليها فليجتنب . ثم إن محمدًا أباح المس للرجل إذا كانت المرأة عجوزًا ولم يشترط كون الرجل بحال لا يجامع مثله ، وفيما إذا كان الماس هي المرأة فإن كانا كبيرين لا يجامع مثله ولا يجامع مثلها فلا بأس بالمصافحة . ثم قال : والخلوة بالأجنبية حرام ، وفي «القنية» مكروهة كراهة

---

[1] تطور حقوق المسنين للشيخ محمد مختار السلامي (ص ٨) .

[2] تأليف الإمام أبي الرجاء نجم الدين مختار بن محمود الزاهدي الحنفي المتوفى سنة (٦٥٨هـ) .

تحريم ، وعن أبي يوسف ليس بتحريم ، وإذا كانت الخلوة مع عجوز شوهاء أو مع شيخ لا يجامع مثله فلا تحرم ، ويجوز السفر وحدهما مع هذه الحال ؛ لأنهما بمنزلة المحارم[1] .

نطاق البحث (الشيخوخة الطبيعية) دون الشيخوخة المرضية :

ذكرت أن نطاق البحث هنا يتقيد بمرحلة الشيخوخة التي تبدأ عند سن الخامسة والستين إلى حال الوفاة ، وقلت إن هذه المرحلة السنية تتسم بمتغيرات نفسية وعقلية وجسمانية قد تدفع صاحبها للتصرفات الطائشة ، وغالبًا ما تعجزه عن كثير من الوظائف الشرعية التي كان يمارسها .

وفي حكم تلك المرحلة العمرية التي اخترتها نطاقًا لبحثي ، تلك الفترة الزمنية التي يقضيها المصابون بالأمراض الفتاكة التي يعضل على الطب علاجها في مرحلة ما قبل الشيخوخة ، ومن تلك الأمراض المعضلة : الطاعون الذي ظل قرونًا طويلة محتلاً المركز الأول للأمراض الفتاكة بالإنسانية في العالم ، حتى إذا ما حفظها الله تعالى منه ظهر الأشد فتكًا وهو السرطان الذي يحتل المركز الثاني بين الأمراض الأكثر تسببًا للوفاة في العالم ، ومنذ سنة ١٩٨١م ظهر الأخبث الألد مرض الإيدز فيروس نقص المناعة HIV ولا يزال في زيادة مطردة مخيفة ، فتدل الإحصاءات العالمية في بداية ١٩٩٥م على وجود ١٨ ملايين شخص يحملون الفيروس ، وأنه في سنة ٢٠٠٠م يوجد ما بين ٥-١٠ ملايين طفل في العالم فاقدين لأحد والديهم ضحية الإيدز . كما توجد أمراض أخرى معضلة لا تتقيد بعمر معين ؛ لأنها تصيب جميع الأعمار[2] .

---

(١) حاشية ابن عابدين (٣٦٨/٦) ،ونص بعض المالكية على جواز خلوة الشيخ الهرم بالشابة وخلوة الشاب بالعجوز ، ونص الحنابلة على مشروعية مصافحة العجوز ومس يدها . الفواكه الدواني (٤١٠/٢) ، الإنصاف (٢٦/٨) ، مطالب أولى النهى (١٤/٥) . وسيأتي في القسم الثاني مباحث خاصة لتلك الأحكام .

(٢) السنوات المتأخرة من العمر للدكتور عز الدين إبراهيم (ص ١٥ ، ١٦) .

وهذه الفترة الزمنية التي يعاني منها مريض الداء العضال مع انتظار الموت المحتوم تشبه مرحلة الشيخوخة المتأخرة إلا أنها خارجة عن نطاق بحثنا ؛ لأنها من الطوارئ التي يمكن أن يوجد لها علاج مع التقدم الطبي ومحل دراستها في أحكام المرضى[1] .

أما مرحلة الشيخوخة التي اختصصتها بالدراسة فهي مرحلة طبيعية يمر بها كل من كتب له طول العمر في الدنيا ولا تنفك عنه بحال ، وقد أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه ـ واللفظ له ـ عن أسامة بن شريك ، أن رسول الله ﷺ قال « تداووا عباد الله ، فإن الله سبحانه لم يضع داء إلا وضع معه شفاء إلا الهرم »[2] . كما أني أردت ببحثي هذا تكريم أهل الشيخوخة الطبيعية بانفرادهم به ، وخاصة أنني لم أجد من الباحثين السابقين من اختصهم ببحث في الوقت الذي اطلعت فيه على كتب عالجت أحكام الصغار وأحكام المرضى[3] .

* * *

---

١ ـ وفي حكم ذلك أيضًا الفترة الزمنية التي ينسأ فيها المحكوم عليهم بالقصاص لاحتمال العفو .

٢ ـ سنن ابن ماجه (٢/١١٣٧) رقم (٣٤٣٦) ، سنن أبي داود (٤/٣) رقم (٣٨٥٥) ، سنن الترمذي (٤/٣٨٣) رقم (٢٠٣٨) ، وقال : حديث حسن صحيح .

٣ ـ راجع مقدمة هذا الكتاب .